الشّخصيّة التّاريخيّة في رواية حومة الطّليان لأحمد حمدي

أ. فاطمة الزّهراء فنازي
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

الملخص:

يعدّ توظيف التّاريخ في الرّواية الوسيلة المثلى لفهم الواقع من خلال الماضي أو نقده، كما يضفي على الرّواية أسلوبا جديدا، ممّا يجعل النّص الرّوائي بأتمّ خصائصه الجماليّة، يأخذ من التّاريخ جانبه الحي؛ ليقارن بين ما حدث في عهود قديمة وبين ما يماثلها في الواقع المعيش فالتّاريخ يحضر في الرّواية طبقا لمبرّرات فنيّة يختصّ بها المتخيّل السّردي، وكذا الشّخصيّة التّاريخيّة تتحوّل عند توظيفها داخل النّص السّردي إلى وحدة حيّة لا يقتصر دورها على الجانب الدّلالي فقط، بل تساهم مساهمة فعّالة في التّشكيل الجمالي للنّص؛ وذلك من خلال التّركيز على كيفيّة استدعاء وتوظيف الشّخصيّة التّاريخيّة في المقاطع السّرديّة المختلفة، بحيث يصبح لهذه الآليّة أي التّوظيف دورا فعّالا في إثراء النّصّ الرّوائي.

Résumé :

L'utilisation de l'histoire à l' écriture du roman est considérée comme la meilleure façon pour comprendre la réalité à travers l'emploi du passé ou de le critiquer, en plus cette utilisation ajoute un nouveau style au roman ce qui rend le texte narratif avec toutes ses caractéristiques esthétiques prendre la partie vivante de l'histoire, en collaboration entre ce qui est passé dans des périodes antiques et son équivalent dans le présent.

En effet, l'histoire est utilisée dans le roman selon des justifications techniques uniques au récit imaginaire. Aussi, la personne historique lorsqu'elle est employée dans le texte narratif se transforme en une unité vivante ou son rôle ne se limite pas uniquement à la partie sémantique mais une contribution efficace à la composition esthétique du texte. En se concentrant sur la façon d'appeler et d'employer la personne historique dans les différentes sections narratives.

Donc ce mécanisme (l'emploi) devient un rôle efficace à l'enrichissement du texte narratif.

تمهيد:

تعدّ الشّخصيّة إحدى الدّعامات الأساسيّة الّتي يقوم عليها العمل الرّوائي، كما أنّها:" أهمّ مكوّنات أيّ عمل حكائيّ، وذلك لأنّها تمثّل النّواة الّتي تجمع مختلف الأفعال المرتبطة في مجريات الحكاية، وجعلها محطّة ذات أهميّة قصوى لدى المهتمّين والمنشغلين بأنواع الحكايات المختلفة" (1)، فلا يمكن أن يقوم أيّ عمل حكائيّ دون توظيف الشّخصيّات ومحاولة إبرازها في المواقف الّتي تساعد على تألّقها مع بيئتها.

كما نجد بعض الرّوائيّين يستخدمون الشّخصيّة كأساس لإبداعهم، فمن خلالها "تبرز الملامح الحيويّة للعصر التّاريخي وتشكيله وبنائه؛ بفضل مقدرتها على عرض جوانبه الهامّة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسيّاسيّة والثّقافيّة." (2)، فكلّ شخصيّة هي نموذج أمثل لعصرها وبيئتها، ولن يستطيع الرّوائيّ تحقيق ذلك إلاّ إذا تمّت بدقّة الملاحظة وصدق الوصف، أي أن يكون أمينا عند نقله للأحداث التّاريخيّة الواقعيّة الّتي جرت أثناء وجود تلك الشّخصيّة.

وتجدر الإشارة إلى الفرق بين الشّخص والشّخصيّة فهذه الأخيرة يقصد بها " الشّخصيّة داخل المجتمع الرّوائي، في حين يقصد بالشّخص الإنسان الفرد كما هو موجود في الواقع، أي ذلك الإنسان الّذي يعمل ويعيش ويفكّر"(3) ، فالشّخصيّة الرّوائيّة خلقها الرّوائي لغة بواسطة الخيال، ممّا جعلها تتّخذ مفهوما تخييليّا لسانيّا، فهو تخييلي لأنّ الشّخصيّة تخلق وتبتدع من مخيّلة الرّوائيّ، ولسانيّ لأنّ اللّغة هي الّتي جسّدت هذه الشّخصيّة وجعلتها الشّيء الملموس والموجّه للقارئ والنّاقد على حدّ سواء.

وقد اختلف النّقّاد والدّارسون في تقسيمهم للشّخصيّات؛ فهناك من يقسّمها حسب الثّبات والنّمو إلى "شخصيّات ثابتة أو ساكنة statique personnage؛ وهي لا تتغيّر على المدى الكلّي، وتسمّى الثّانيّة الشّخصيّات النّاميّة أو الدّيناميكيّة؛ وهي تتحوّل وتتغيّر بحسب ما يطرأ على الملفوظ السّردي من تحوّل أو تغيّر" (4).

وهناك من يقدّم الشّخصيّات حسب دلائلها، مثل "فيليب هامون" الّذي يصنّفها إلى ثلاثة أنواع:

" أ- فئة الشّخصيّات المرجعيّة: وهي شخصيّات تاريخيّة، وميثولوجيه واجتماعيّة أو مجازيّة.

ب- فئة الشّخصيّات الواصلة أو الرّابطة: وتشكّل همزة وصل بين المؤلّف والقارئ أو ما ينوب عنهما في النّص.

ج- فئة الشّخصيّات المكرّرة: وتحيل على النّظام الخاص بالعمل الأدبي وتنسج داخل الملفوظ"(5)، حيث يتعلّق النّوع الأوّل من الشّخصيّات بالظّروف الواقعيّة للعالم الخارجي، أمّا النّوع الثّاني يرتبط بمضمون الخطاب، ويتكفّل بإيصال فكرة المؤلّف للقارئ، أمّا الثّالث يختصّ بالشّخصيّات الّتي يصوغها الرّاوي من مخيّلته وينسجها داخل الخطاب الرّوائي.

ويقسّم "وليد بن حمد الذّهلي" صاحب كتاب "جماليّات الصّحراء في الرّواية العربيّة" الشّخصيّات إلى ثلاثة أنواع: "-شخصيّة مرجعيّة وهي شخصيّات واقعيّة -شخصيّة تخييلية: وهي مختلف الشّخصيّات الّتي

نجد لها اسما تاريخيّا محدّدا حسب سعيد يقطين -شخصيّة عجائبيّة: هي الّتي يكون تشكّلها مخالفا للمألوف"(6).

هذا التّصنيف ينطبق مع ما أورده "نضال الشّمالي" في سياق حديثه عن أنواع الشّخصيّة التّاريخيّة أو المرجعيّة والّتي تعدّ "شخصيّة مرهقة لكتّاب الرّواية بشكل عامّ وكاتب الرّواية التّاريخيّة بشكل خاص؛ لأنّها تدخل إلى عمل بحقيبة ملابس جاهزة لا يمكن إبعادها عنها، أو اقتراح ملابس جديدة لا علاقة لها بالصّورة المرسومة عنها" (7). فالشّخصيّة التّاريخيّة هي بمثابة حاجز يحدّ من حريّة الكاتب، ولا يخفّفه إلاّ حضور الشّخصيّات المتخيّلة، كما أنّ نقله لكلّ تفاصيلها قد يوقعها في خطر استحواذ التّاريخ عليها.

وعلى هذا الأساس قسّم "نضال الشّمالي الشّخصيّة التّاريخيّة ثلاثة أقسام:" شخصيّة تاريخيّة مفعّلة للحدث، شخصيّة تاريخيّة مقصاة عن الحدث وشخصيّة تاريخيّة مقصاة عن الحدث أو متخيّلة" (8).

ونلاحظ أنّ هذه الأنواع الثّلاثة من الشّخصيّات قد توفّرت بكثرة في رواية "حومة الطّليان"، هذه الأخيرة الّتي شكّلت مزيجا من الشّخصيّات المتحقّقة والمتخيّلة " فهي تثبت المتحقّق وتصنع المتخيّل، أو تحوّل الشّخصيّة المتحقّقة شخصيّة متحقّقة ومتخيّلة في اللّحظة ذاتها، وتدفع بالجميع في فضائها الرّوائي المثير الّذي يلغي الفروق بين ما قدّمه المتحقّق التّاريخي وما اقترحه المتخيّل الرّوائي" (9)، فهدف "أحمد حمدي" عند اقتباسه للمادّة التّاريخيّة الخاصّة بالثّورة الجزائريّة لم يتمثّل في إحياء تاريخ بطولات الشّعب الجزائري والإشادة بمناضليه فحسب، وإنّما كان يهدف إلى تحقيق الوظيفة الفنيّة الجماليّة للرّواية من خلال الدّلائل الموحيّة الّتي تكشف عن وحشيّة المستعمر وحقيقته المقيتة، ومدى أثر هذه الحقيقة المتخيّلة في مخيّلة المتلقّي.

أ) الشّخصيّة التّاريخيّة المفعّلة للحدث:

يشكّل هذا النّوع من الشّخصيّات صعوبة كبيرة تواجه الرّاوي، فعلى هذا الأخير أن يكون محيطا بجميع الحوادث التّاريخيّة الّتي ساهمت فيها الشّخصيّة، إضافة إلى اللّغة الّتي يجب أن يتحدّث بها، فلا يمكن أن ينقل كلّ أحاديث الشّخصيّة من المراجع التّاريخيّة، وإنّما عليه أن يجمعها فقط ويضفي عليها صبغة تخييليّة، غير أنّ هذه الصّعوبات لا تقف عند المرجعيّة التّاريخيّة فحسب بل تتعدّى ذلك إلى المرجعيّة التّخيّليّة "عندما تتورّط الشّخصيّات التّاريخيّة في حوار أو مواقف مع شخصيّات متخيّلة، إذ لا تكفل لنا النّصوص التّاريخيّة دائما الوثائق الّتي نحتاجها، فنعود مرّة أخرى إلى تأكيد مبدأ المزاوجة بين ما كان وأثبت، وما كان ولم يثبت (المسكوت عنه)، إذ إنّ خطأ المزاوجة يفسد بناء الشّخصيّة التّاريخيّة، ومن ثمّ المصادقة الوثائقيّة في العمل الرّوائي برمّته" (10).

فيجب أن تتناسب الحقائق التّاريخيّة الّتي استطاع الرّاوي أن يجمعها ولم يذكرها في روايته، مع ما أثبته ووظّفه فيها، لأنّ مساحة المسكوت عنه في الرّواية هي الّتي تمنح - رغم ضيقها- حريّة للكاتب، وبقدرته الفنيّة الخياليّة يستطيع توسيعها واستغلال كلّ شبر فيها، وهذا ما يبرز لنا التّفاوت بين كاتب وآخر؛ أي أنّ

جودة الرّواية التّاريخيّة وجماليّتها لا تكمن في المضمون الّذي تتناوله فحسب، وإنّما في كيفيّة التّعامل مع المادّة التّاريخيّة وحسن توظيفها، هذه الطّريقة وحدها كفيلة في الإعلاء من شأن الرّواية أو الحطّ منها.

ومن أمثلة الشّخصيّات التّاريخيّة الّتي كان لها دور في سير الحوادث وتطوّرها، كما احتّلت مساحة كبيرة من رواية "حومة الطّليان" هي الشّخصيّات الأجنبيّة أو نموذج المستعمر على حدّ تعبير حسن بحراوي (11)، حيث أخذ حيّزا حقيقيّا في هذا العمل، والهدف من ذلك هو إبراز حقيقة المستعمر وفضح جرائمه البشعة اتّجاه الشّعب الجزائري ، إضافة إلى تزييف مبادئ الدّواة الفرنسيّة الّتي تحمل شعار العدل والمساواة، ويتّضح ذلك من خلال بعض المشاهد الحواريّة لبعض الشّخصيّات الحقيقيّة مع شخصيّات أخرى متخيّلة أو مع نفسها (المونولوج)، وقد بدا الكاتب هنا متحرّرا في التّعبير عن هذه الشّخصيّات الّتي أثبتتها المراجع التّاريخيّة.

فكانت أوّل شخصيّة ذكرها "أحمد حمدي" في روايته شخصيّة "ألبير كامو" ذلك الاستيطاني الفرنسي الّذي شوّه صورة مدينة وهران وصبّ عليها أفكاره الطّاعونيّة، لذا هاجمه أحمد حمدي على لسان بطل روايته "الأخضر مهّي" قائلا:" ... من كلّ ذاك فإنّ خموس يكون قد تردّد كثيرا في تفكيك فظّ لمشهد وهران المبني على الجلال والوقار ليعيد تركيبته بناء على نفسيّته المريضة وأفكاره المعقّدة، ورؤاه الخاصّة النّاجمة عن طفولته البئيسة والمتشكّلة من عالمين متناقضين ومتصارعين... عالم فقراء les pieds noirs الّذين يزداد حقدهم على الأقل منهم درجة في السلّم الاجتماعي... ذلكم العالم الأوّل، أمّا العالم الثّاني فخو عالم les bicots الّذي يضمّ شتات les indigènes الّذين لا ينبغي لهم أن يعيشوا إلّا في الهوامش والأطراف" (12).

والملاحظ هنا أنّ طفولة "خموس" البائسة المنبثقة من جذور حقيرة، خلّفت لديه عقدة نقص دفعته إلى زرع بذور كريهة ارتسمت في مخيّلته، وذلك لينتقم من الذّكريات المحزنة الّتي لاقاها إثر تواجده في مدينة وهران وهي "قيّام الأسطول البريطاني بتدمير الأسطول الفرنسي وإغراقه في ميناء المرسى الكبير يوم 30 جويلية 1940"(13).

إضافة إلى هذه الشّخصيّة تطرّق "أحمد حمدي" إلى شخصّيات أخرى فرنسيّة تفنّنت في تنفيذ عمليّاتها الإجراميّة على الشّعب الجزائري بشكل عامّ والسّكيكدي بشكل خاصّ، ومن بينهم محافظ الشّرطة "شارل بريدو" الّذي كان أوّل حضور له في الرّواية على شكل حوار داخلي أو مونولوج؛ عندما كان يتساءل عن كيفيّة تخلّصه من أنصار جبهة التّحرير الوطني بقوله:"لكن كيف يتسنّى ذلك؟ وجبهة التّحرير موجودة في كلّ مكان، وفي نفس الوقت هي كالنّسيج لا يمكن القبض عليها، غير موجودة في أيّ مكان، فكلّ العرب فيما بينهم يتعاطفون معها ويقدّمون اشتراكاتهم لها، ولكنهم عندما يكونون مع الأوربيّين يشجبونها، إذن ما الحلّ؟"(14)، هذا السّؤال طرحه على نفسه ثمّ اهتدى إلى أنّ أساليب التّعذيب القديمة لم تعد تف بالغرض، وعليه أن يضيف ابتكارا جديدا يتمثّل في نظريّة تجفيف المنابع، دون التّخلّي عن نظريّات أسلافه الجهنّميّة المتمثّلة في: نظريّة الأرض المحروقة للمارشال "بيجو دو لابيسونري Bugeaud de la piçonnrie"

ونظريّة التّرحيل الدّئم لتلميذه النّجيب الجنرال "نيغريّيه"، والثّالثة هي سيّاسة الاختناق في المغارات بالدّخان والغاز للتّلميذ الثّاني لبيجو، والّذي لا يقلّ عنه وحشيّة وضراوة "أشيل لو روا دو سانت- أرنو Achille le roy de sant – arnaud".

وما يؤكّد أنّ هذه شخصيّة " شارل بريدو" فعّالة في سير حوادث الرّواية؛ طرحه للرّباعيّة المذكورة سابقا واستعراضها على رئيسه المحافظ العامّ "ألكسندر فليبرتي Alexandre filiberti" الّذي تفاعل مع هذه الفكرة وتحمّس لها، ولم يتردّد في عرضها على النّقيب "بول أساريس Paul aussarresse" الّذي باركها بكلّ حماس وتبنّاها بمختلف تفاصيلها، كما أنّه أضاف إليها فكرة أن تكون بالذّكاء في الخفاء، هذه العبارة الّتي كانت شعاره في تطبيق جرائمه الّتي سرعان ما أفل نجمها إثر اغتياله على يد جزائري يدعى " مولود الأرقط" هو شخصيّة متخيّلة وظّفها أحمد حمدي ليحدّ من سلطة التّاريخ على الرّواية ويجد الحريّة في إطلاق العنان لمخيّلته، وهنا تكمن القدرة الفنّية للكاتب في التّعامل مع الشّخصيّات التّاريخيّة.

ومن الشّخصيّات التّاريخيّة الأخرى الّتي كانت فعّالة في سير الحدث، شخصيّة النّقيب "بول أوساريس" الّذي استحضره الرّوائي وهو في رتبة " رائد في الجيش الفرنسي الّتي رقي إليها لتوّه، اعترافا وتثمينا للخدمات الجليلة الّتي قدّمها لبلاده في هذه الفترة القصيرة." (15) وقد كان هدفه الأساس القضاء على نقطة مهمّة في الجزائر هي جبهة التّحرير الوطني، ولكي يتمكّن من ذلك ابتكر نظريّة جديدة سمّاها "الرّعب المضاد"، وهي لا تقتصر على التّعذيب الجسدي فحسب وإنّما يتبعها كذلك التّعذيب النّفسي الّذي تمثّل في إهدار كرامة الموقوفين والتّعدّي على أعراضهم.

وقد تباهى هذا السّفّاح الفرنسي في مذكّراته " أجهزة خاصّة الجزائر 1955- 1957" بعمليّات التّعذيب الّتي كانت تقوم بها القوّات الخاصّة الفرنسيّة في الجزائر والّتي شارك فيها بنفسه، كما اعترف بشنق أحد رموز الثّورة الجزائريّة الشّهيد "العربي بن مهيدي"، وقد ورد ذلك في حوار له مع الصّحفي "سامي كليب" على قناة الجزيرة؛ حيث استضافه ليكشف عن الجرائم الّتي ارتكبها في حقّ الشّعب الجزائري واهتزّ لها بلد المليون ونصف مليون شهيد وحتّى فرنسا، ومن بيت هذه الجرائم اغتياله للمناضل "العربي بن مهيدي" ، وما يؤكّد ذلك قوله بعد سؤال الصّحفي "سامي كليب": إذن هل اتّخذتم القرار بتصفيّته؟...بإمكانكم قتل العربي بن مهيدي، ثمّ إعطاء الانطباع بأنّه انتحر؟

بول أوساريس: هذا صحيح كان علينا أن نفعل ذلك ولم يكن هناك مجال للاختيار.

سامي كليب: هل شعرت بالارتيّاح بعد قتله؟

بول أوساريس: نعم، نعم"(16).

ومن أمثال المناضلين الجزائريّين الّذين اغتالهم "بول أوساريس" كذلك، المحامي المناضل "علي بومنجل" الّذي كان حسب قوله:" يلعب دورا مهمّا جدّا داخل جبهة التّحرير الجزائريّة، دورا مهمّا من خلال اتّصالاته الواسعة والمستمرّة مع الحكومات الأجنبيّة، وقد كان بمثابة وزير للخارجيّة"(17).

هذه الجرائم الّتي اعترف بها هذا السّفّاح لم تؤثّر فيه ولم يندم عليها حتّى بعد مرور خمسين سنة من وقوعها، بل عبّر عن ارتيّاحه وفخره لنجاحه في أداء هذه المهمّة بنجاح، ولا عجب في ذلك لأنّه هو وأمثاله تفتقد قلوبهم إلى معاني الرّحمة والرّأفة بالآخرين.

وما يؤكّد اغتراف أحمد حمدي من المادّة التّاريخيّة المتعلّقة بالثّورة الجزائريّة واقتباسه للحوار الّذي جرى بين "بول أوساريس" ومسؤوله حول نظريّته الجديدة اللاّأخلاقيّة والّتي ورد ذكرها في مذكّراته الخاصّة: وذات يوم سأله مسؤوله:

– Vous êtes sûr qu'il n'y a pas d'autres moyens pour faire parler les gens ? des moyens plus...

– Plus rapides ?

– Non, ce n'est pas ce que je voulais dire.

– Je sais, mon colonel, vous voulez dire : plus propre, vous pensez que tout cela ne colle pas avec notre tradition humaniste.

– En effet, je le pense.

– Même di je partage ce point de vue, mon colonel, l'accomplissement de la mission que vous n'avez donné m'oblige à ne pas raisonner en termes de morale mois du point de vue de l'efficacité.

– Et que faites-vous de vos suspects – après.

– Après qu'ils ont parlé ?

– Exactement.

– S'ils ont un lien avec les crimes terroristes, je les abats.

– Mais vous vous rendez compte que c'est l'ensemble du FLN qui est lié aux terroristes.

– Nous sommes d'accord !"(18)

والملاحظ هنا أنّ "أوساريس" ومسؤوله يحاولان من خلال هذه النّظريّة، الضّغط غلى الموقوف واستنطاقه بأيّ طريقة دون مراعاة لأعراضهم وكرامتهم، فالمهمّ عندهم مدى فعاليّة هذه النّظريّة وقدرتهم على انتزاع المعلومات الّتي يحتاجونها؛ لتنفيذ مبتغاهم المتمثّل في قتل كلّ من له علاقة بجبهة التّحرير الوطني.

وقد ورد ذكر ما فعله "أوساريس" أيضا في بعض المراجع التّاريخيّة على لسان العقيد "أورغو" في قوله: "إنّنا عند القيّام بعمليّة الاستنطاق، لا يهمّنا سوى الحصول على المعلومات بأيّ ثمن، فحياة الإنسان عندنا لا قيمة لها، وقد حضر هو شخصيّا عمليّة إعدام 300 شخص في قطاع الأربعاء، ومارس الجنود

الفرنسيّون كلّ أنواع التّعذيب، مثل تسليط الكهرباء على الأعضاء الحسّاسة والحرق بالسّجائر والغطس في الماء..."(19)

وممّا سبق نلاحظ أنّ شخصيّة "بول أوساريس" وغيرها من الشّخصيّات الأخرى الّتي كان لها دور فعّال في سير الحوادث، هي شخصيّات حقيقيّة وظّفها الرّوائي بلغتها الأصليّة "الفرنسيّة" ضمن موضوعات ومفاهيم لا تؤثّر على سيّاقها التّاريخي النّابعة منه، كما أدخلها في حوارات مع شخصيّات متخيّلة، وهذا ما جعلها مفعّلة للحدث الرّوائي.

ب) الشّخصيّة التّاريخيّة المقصاة عن الحدث:

وهي الشّخصيات الّتي يستعملها الرّوائيّون بشكل غير مباشر، أي يوظّفونها في أعمالهم توظيفا محدودا، والسّبب في ذلك هو "عدم الرّغبة في التّورّط بما لم يكتبه التّاريخ ومن ثمّ الدّخول في الاحتمالات والافتراضات أنّ الشّخصيّة قالت ذلك أو لم تقله"(20)، فتقيّد الرّوائي بالحقائق التّاريخيّة للشّخصيّات قد يحدّ من حرّيته، وينقص من فنّية العمل الرّوائي وجماليّته.

وبالرّغم من أنّ معظم هذه الشّخصيّات كان لها دورا فعّالا تاريخيّا، إلاّ أنّ فعاليّة هذا الدّور قلّت في العمل الرّوائي، فالقانون هنا يختلف " فمن كان بطلا في التّاريخ قد يغدو شخصا ثانويّا في الرّواية والعكس يصدق في ذلك"(21)، وهنا تكمن قدرة المؤلّف في تجاوز سلطة التّاريخ والإبحار في مخيّلته لإنشاء عمل روائيّ تاريخيّ.

وقد كثر استعمال هذا النّوع في رواية "حومة الطّليان"؛ حيث كانت الشّخصيّات التّاريخيّة الواقعيّة ثانويّة لم تشارك في الفعاليّات الحقيقيّة للرّواية بشكل مباشر، وإنّما ساهمت فيها عن بعد حسب أهميّة دور كلّ منها، وقد تنوّعت هذه الشّخصيّات بين جزائريّة وأجنبيّة؛ لأنّ حومة الطّليان كانت تضمّ آنذاك مزيجا من الأجناس، فمن بين الشّخصيّات الجزائريّة شخصيّة "الأمير عبد القادر الجزائري" هذا البطل الّذي لم يسلم من تشويه وتضليل المستعمر الفرنسي الّذي كان يسعى دائما إلى طمس هويّة الجزائر وتشويه صورة مناضليها، وقد ورد هذا في الرّواية أثناء النّقاش الّذي دار بين "بوجمعة " بن الأخضر مهنّي وأستاذ التّاريخ الّذي راح يسرد معلومات مضلّلة ومزوّرة عن "الأمير عبد القادر" حيث وصفه بأنّه " محتال وخارج عن القانون، وناكث لوعوده، وناقض لمعاهداته، وحانث عن قسمه، ومتسلّط عن السّكّان الآمنين"(22)، لكنّ التّاريخ يشهد بنباهة هذا البطل ونبوغه وشجاعته النّادرة وقوّته الجسديّة وفروسيّته المتحكّمة، إضافة إلى نشأته الدّينيّة على يد أبيه "محي الدّين" وأصله الّذي يرجع إلى سيّدنا "الحسين" بن علي بن أبي طالب و"فاطمة" بنت محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فكلّ هذه الخصال جعلته أهمّ وأشجع شخصيّة عرفها التّاريخ الجزائريّ في تلك الحقبة الثّوريّة.

إضافة إلى هذه الشّخصيّة العظيمة تطرّق أحمد حمدي إلى شخصيّات تاريخيّة أخرى ثانويّة، ظلّ صداها ظاهرا عن بعد ولم يصل إلى حدّ البطولة، وقد ورد ذلك في قوله:"... ولكنّهم عندما يكونون مع

الأوروبيّون يشجبونها، وبعضهم يتغابى ويخلط بين ميصالي الحاج وعبد الحميد بن باديس وفرحات عبّاس، وكأنّه مازال يعيش في الثّلاثينيّات..." (23)

هذه الشّخصيّات كان لها أثرا كبيرا ودورا فعّالا في التّاريخ الجزائري، وقد كان توظيفها محدودا في الرّواية؛ لعدم التّورّط بما لم يكتبه التّاريخ إضافة إلى تجنّب الوقوع في سلطته الّتي تقلّل من حريّة الكاتب، فقد كان ميصالي الحاج كان رئيس الحركة الوطنية الجزائريّة (MNA)؛ الّتي كانت على خلاف دائم مع جبهة التّحرير الوطني، وقد أشار إلى ذلك أحمد حمدي عند حديثه عن تفجير عصابة اليد الحمراء لمحلّ الشّيخ "المبروك"، وادّعائها بأنّه من أتباع ميصالي، وأنّ جبهة التّحرير مسؤولة عن هذا الحادث "... أمّا العسكر والشّرطة ورجال المطافئ فقد كانوا حازمين ولا يتسامحون أبدا مع العرب، وقد كيّفوا القضيّة على أنّها من صنع جبهة التّحرير الوطني، بعد أن زعموا أنّ الحاج المبروك من أنصار (MNA) التّابعة لحركة ميصالي الحاج..."(24)

كذلك حديثه عن "الرّزقي" هذا السّكّير الّذي لطالما نصحه أنصار جبهة التّحرير الوطني بترك الدّوامة المظلمة والرّجوع إلى الطّريق المستقيم ورعاية ابنه المتشرّد "بوعلام"، كذلك نبّهته إلى " ضرورة التّفريق بين الحركة الوطنيّة الجزائريّة وجبهة التّحرير الوطني، وأكّد له أنّ ميصالي الحاج قد انحرف عن جادة الصّواب..."(25) فهذه التّحذيرات تؤكّد أنّ ميصالي كان متواطئا مع فرنسا؛ فقد كان يمنع المناضلين خاصّة المهاجرين من أيّ نشاط ثوريّ ، لكنّهم تصدّوا له ولمنظّمته " ممّا أدّى إلى اغتيال وقتل العشرات منهم في أوّل نوفمبر 1954، واكتفي بذكر (حمر العين) الّذي طعن بالخنجر في شارع سان جارمان بباريس في مايو 1954، و(بوقيقاز عمار) الّذي قتل في ليون، والكولونيل عميروش وقد جرح في حجرته"(26).

لكنّ حركة ميصالي لم تتوقّف عند هذا الحد، فقد تحوّلت من تيار سياسي إلى منظمّة إرهابيّة مناهضة للثّورة، حملت شعار العنف واحتقار المناضل الجزائري بل "ونظّمت جماعات من المرتزقة الإرهاب المهاجرين وإخضاعهم، وتثبت حوادث ضرب المقاهي الجزائرية بالمدافع الرشاشة مدى انحلالهم"(27).

وككلّ الحركات الإرهابيّة المعطّلة لنشاط الثوّار والمؤثّرة على نجاح الثّورة الجزائريّة وتحقيق الاستقلال، اضمحّلت حركة ميصالي الحاج وزالت لأنّها لم تستطع الصّمود أمام جحافلة الثّورة الجزائريّة، واختارت خيانة الوطن بدلا من حمايته والدّفاع عنه.

وفي مقابل هذه الشّخصية السّلبيّة تظهر شخصيات أخرى حملت على عاتقها مسؤوليّة الدّفاع عن الوطن وتحريره مهما كان الثّمن، كالعلاّمة العبقري "عبد الحميد بن باديس" الإمام المجاهد الكبير الّذي ترأّس جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين رفقة كتلة من المناضلين الجزائريّين، الّذين كرّسوا حياتهم لحماية الدّين الإسلامي من الحركات التّبشيريّة العنيفة، هذه الأخيرة الّتي تفرّعت جذورها وسط الشّعب الجزائري في تلك الحقبة ، كما كافحوا بشدة لتحقيق حلمهم الكبير في تعريب الجزائر وجعل اللّغة العربيّة لغتها الرسميّة ، إضافة إلى تصديهم للمستعمر الّذي اعتقد أن مائة عام كافية لطمس هويّة الوطن ومحو الصّبغة الجزائريّة من رؤوس الشّعب الجزائري ، لذلك رفعوا شعار "الإسلام ديننا والعربيّة لغتنا والجزائر وطننا"(28).

إضافة إلى "فرحات عباس" الّذي كان رجل دولة، زعيم وطني ورجل سياسي جزائري؛ ما جعله عضوا فعّالا في جبهة التّحرير الوطني إبّان الثورة التّحريريّة الجزائريّة.

فهؤلاء المناضلون الشّجعان دافعوا عن وطنهم بكلّ إخلاص، وحاربوا العدوّ وكلّ التّابعين له بضراوة؛ ممّا جعلهم مخلّدين في الذّاكرة القوميّة الجزائريّة، كما تطرّق أحمد حمدي إلى شخصيات من التّاريخ العربي القديم " كعنترة بن شدّاد " " الفارس المغوار والشّاعر الجاهلي الفحل " (29) الّذي أرّخ لسيرته الأدب الشّعبي أيضا.

إضافة إلى هذه الشّخصيات الجزائريّة استحضر أحمد حمدي شخصيات أجنبيّة شهدها التّاريخ الفرنسي والأوروبي بشكل عام، فبعضها ذكر مرة واحدة والبعض الآخر تكرّر ذكره مرة أو ثلاث من خلال إشارات أو ذكر أسماء فقط.

فقد ذكرت شخصيّة المارشال "بيتان Pétain" مرّة واحدة في سياق حديثة عن الأسطول الفرنسي وتدميره من قبل الأسطول البريطاني، هذا الأخير الّذي "رفض مواصلة الحرب ضدّ النّازية الألمانيّة، وخضع بصفة كليّة لسلطة pieds-noires الّذين وضعوا ثقتهم العمياء في حكومة vichy ومعبودهم المارشال Pétain الّذي لم يتردّد في الخضوع والعمل تحت قيادة القوّات الألمانيّة الزّاحفة "(30)، فهذا الرّئيس الفرنسي بعد أن استطاع الصّمود أمام القوّات الألمانيّة في معركة فيردان في الحرب العالميّة الأولى، أصبح مناصرا لها بعد هزيمة فرنسا سنة 1940، كما تقلّد منصب رئيس الدّولة في "فيشي" حاملا شعار التّعاون مع ألمانيا النّازية ، فهذه خيانة عظمى لفرنسا، حكم على إثرها بالموت لولا تدخل " شارل ديجول " واستبداله الحكم إلى السّجن مدى الحياة، ليظلّ محتجزا حتّى فارق الحياة سنة 1951 عن عمر يناهز 95 عام"(31).

إضافة إلى هذه الشّخصية استحضر أحمد حمدي شخصية المارشال "فالي" valée الّذي لا يختلف عن سابقيه وحشية وضراوة، فقد أطلق على مدينة سكيكدة يوم 17 نوفمبر من السّنة نفسها (1838) اسم Philippeville، تملّقا من قبل هذا المارشال السّفاح لملكه "لويس فليب louis-Philippe" علّه يغدو عليه ببعض النياشين "(32).

كما ترأّس عمليّة إبادة قبائل بني مهنى وبني بشير وبني مالك بمساعدة شخصية أخرى كشفت عن وجهها وتفننت في إبراز وحشيتها ، فكانت هذه الإبادة بتنفيذ " الجنرال négrier الّذي جاءته الفرصة للانتقام من الّذين كبّدوه هزائم نكراء وخسائر شنيعة على أبواب قسنطينة، وراح يتفنّن بأساليب الدّمار بمساعدة النّقيب مصّاص الدّماء " Achille le roy de sang-arnaud "(33)، لكن جرائم "نغرييه" لم تتوقّف عند هذا الحدّ، وإنّما عزم على القضاء ومحو آثار مدينة سكيكدة وتحويلها إلى بنايات عصرية تتماشى والذّوق الفرنسي، لكنّ مخطّطه باء بالفشل لأنّ الإيطاليين لم يتقيّدوا به، فحوّلوا المشروع إلى نمط الأحياء الإيطاليّة الجنوبيّة، ولم يبق للفرنسيّين سوى أشلاء قبيلتي بني مهنّى وبني بشير.

وفي مقابل هذه الشّخصيّات التّاريخيّة الأجنبيّة الّتي لم تشارك مباشرة في الفعاليّات الحقيقيّة للرّواية، تظهر كذلك شخصيات أخرى كانت محلّ صراع ونقاش بين النّساء المتخاصمات في الحومة لأمور تافهة "حيث تفتح إحداهن الفونوغراف على أعلى صوته لتفتخر بأنّها قد حصلت على آخر أسطوانة 45

tons من أغاني Edith piaf وتريد أن تبلغ الجميع بذلك، بل ولا تبخل بأن تشرك الجيران في الاستمتاع بهذا الصّوت الملائكي، لكن لا تلبث أن تجد من يحتقر نوع الغناء الّذي تؤديه Edith Piaf باعتباره من أغاني الشّارع ، ولا يسمو بعميق المعاني وبديع الأفكار، ولا تتوالى إحداهنّ في إظهار شغفها بأغاني Gorges Moustaki وهنا تنبري إحداهن مؤيدة الأولى ومدافعة عن Edith Piaf باعتبارها مطربة جزائرية" (34).

فالرّاوي هنا جعل هذه الشخصيات التّاريخية محلّ تخاصم وجدال بين شخصيات متخيّلة ليبرز أنّ الانتماء الوطني لا يقتصر على عظام الأمور فقط في تلك الفترة بل حتى الأغاني كذلك، وما يدل على ذلك قوله على لسان شخصية متخيّلة " إديت بياف Edith Piaf ":

N'est elle pas de mère algérienne Et n'a-t-elle pas été élevée par sa grand - mère aicha ben Mohamed ? N'été vous pas fiers de vos compatriotes" (35)

فالرّاوي هنا لا يهتم بمدى فاعلية الشّخصيات التّاريخية للحدث أو إقصائها عنه، بل يهتمّ بكيفية إيصال الفكرة للقارئ وتحسيسه بمصداقيّة وواقعيّة العمل الروائي.

3-الشّخصيات المتخيّلة:

بالرّغم من أهمية الشّخصيات التّاريخيّة ومقدار إسهامها في إثراء النّص بدلالات متعدّدة لم تتمتّع به عناصرها من نشاط في الوعي الجمعي، غير أنّ كاتب الرّوايات التّاريخيّة ملزم بإكمال عمله الرّوائي وإتمامه من خلال شخصيّات متخيّلة "لا تحدّها مرجعيّة ولا تقيّدها نصوص التّاريخ القديمة فهي ليست وليدتهم، إنّها وليدة تمازج الأفكار وتبلورها على نحو خاصّ "(36).

إضافة إلى ذلك فإنّ هذا النّوع من الشّخصيّات من إبداع الرّاوي وصنعه، ابتكرها لتشارك في صنع الأحداث إيجابا وسلبا، كما قد تكتسب ملامح واقعيّة لأنّ الرّواية التّاريخيّة لا تزاوج بين الشّخصيّات التّاريخيّة والشّخصيّات المتخيّلة فحسب، وإنّما تتجاوز ذلك إلى ظاهرة أخرى هي "إسناد أعمال لا تاريخية إلى الشّخصيّات التّاريخيّة، وأعمال تاريخيّة إلى الشّخصيّات المتخيّلة "(37)، وهذا ما أورده "أحمد حمدي" في روايته "حومة الطليان"؛ حيث لم يكتف بالشّخصيّات التّاريخيّة المنفصلة عن عناصر الرّواية من أحداث وشخصيات، بل سعى إلى إدماجها مع شخصيّات أخرى من نسج خياله، حتى تكون قادرة على تجسيد شكل متميّز لكتابة رواية جزائريّة تستطيع إعادة بناء المكوّن التّاريخي وإدماجه في نسيج جماليّ وأسلوبيّ جديد .

وقد تواجد هذا النوع من الشّخصيّات بكثرة في الرّواية، حيث ركزت على الشّخصيّة المحوريّة " الأخضر مهّي " بوصفها بؤرة للحكي، رصدت عبرها العديد من التّفاصيل الّتي يحياها حيّ حومة الطّليان بشكل خاصّ والجزائر بشكل عام، فهو لا يمثّل فقط شخصيّة العريف المتقاعد من الجيش الفرنسي و ابن سكيكدة المنحدر من قبيلة بني مهّي، وإنمّا هو شخصيّة متخيّلة محتملة، وتاريخ الجزائر في تلك الحقبة الثّوريّة حافل بأمثالها، والأهمّ من ذلك هو فاعليّتها الرّمزيّة والدّلاليّة ووظيفتها الجماليّة مع باقي الشّخصيّات الثّانويّة الأخرى، كزوجته الزّهرة وابنه بوجمعة وصديقيه اليهودي والطّلياني، وفلورا الألمانيّة وجاكلين الفرنسيّة، مسعود بن تهامي، الّشيخ رابح، الرّزقي...

فهذه الشّخصيّات وغيرها ساهمت بشكل كبير في خلق ديناميّة الحكي داخل الرّواية، ممّا سمح بالاطّلاع على بعض المواقف الاجتماعيّة والتّاريخيّة للمجتمع الجزائريّ في تلك الفترة، ومثال ذلك اطّلاعنا على عمليّة التّجنيد الإجباري للجزائريّين من خلال شخصية "الأخضر مهّي" ألذي جنّد إجباريّا وهو ابن الثّامنة عشر ربيعا، وكان ذلك في آخر انتفاضة لقبيلته "بني مهّي" ضدّ قوّات الاحتلال الفرنسي، فقد ساهم مجبرا في الاعتداء على إخوانه المسلمين في إفريقيا، كما تعرّض للكثير من الأمراض الخطيرة المنتشرة هناك لكثرة الغابات والمستنقعات، ولحسن حظّه نجا منها بعد هلاك الآلاف من أصدقائه، كما تعجّب من أنّ الزّنوج المنكوبين إخوانه في الإسلام، وكان ذلك عندما رآهم يحتفلون بعيد الأضحى - مثل قبيلة بني مهّي- بنحر الخراف، الأمر الّذي شجّعه ذات مرة على الصّلاة في المسجد وإشباع رغبة الاطّلاع على أحوال هؤلاء القوم، فوجدهم يصلّون كما كان يصلّي في مسجد الزّاوية بالسويقة في زقاق عرب الّذي يتوسّط قلب مدينة سكيكدة في حيّها العربي، لكنّ هذا الأمر أثار استغراب السّكّان وبصعوبة بالغة أفهمهم "الأخضر" بأنّه جزائريّ ومسلم مثلهم، وأنّه مجبر على محاربتهم .

وقد استمرّت معاناة الأخضر النّفسيّة لمحاربته أناس أبرياء ومساهمته في حرب "لا ناقة فيها ولا جمل"(38)، إلى أن وصل مع الآلاف من العساكر الفرنسيّة إلى ميناء لوهافر لإعلان الحرب على ألمانيا، وهنا قرّر "الأخضر" أن يدافع على فرنسا بكل إخلاص "فالظّلم في رأيه لا جنسيّة له، والتّصدي له ينبغي أن يكون كذلك لا جنسيّة له "(39) لكن مغامرات الأخضر التّمرديّة لم تذهب سدى، فبعد انتصار فرنسا على ألمانيا رقّي مع الكثير من أصدقائه الجزائريين إلى رتبة عريف، هذه الأخيرة الّتي يفتخر بها لأنّه حصل عليها بجهده وشجاعته وجرأته، فكان يقول دائما " إنّ ذلك لفخر يفوق كل اعتبار"(40).

غير أنّ هذه الرّتبة لم تنفع الأخضر أثناء إلقاء القبض عليه من طرف قوّات الجيش الفرنسي أين كان يبحث عن ابنه "بوجمعة" فقد اقتيد إلى عربة الشّحن بخشونة كبيرة كباقي الموقوفين، وتمّ سجنه في منتجع جان دارك، إضافة إلى ذلك اكتسب خبرة عسكريّة أثناء انضمامه إلى جبهة التّحرير الوطني بعد تلقّيه الكثير من التّلميحات والرّسائل من طرف الشّيخ "رابح" الّذي كان بصحبته في المعتقل، فقد كلّفته جبهة التّحرير بصنع القنابل البلاستيكيّة بعد حوار طويل دار بينه وبين المسؤول العسكري "سي الطيّب" الذي كان صارما في نصائحه وتوجيهاته لأنّ "تحرير الوطن في نظره لا يكون بالكلام وحسب، بل بالتّضحيّات وهي الأساس"(41). فهذا الإتقان في تشكيل شخصيّة تاريخيّة متخيّلة نابع بشكل أساس من حريّة الرّاوي الّذي يشكّلها بمعزل عن قيود التّاريخ وشروطه، إضافة إلى تركيزه على النّقاط الحسّاسة والجهويّة للشّخصيّة المتخيّلة، خاصّة تلك الّتي وصلت إلى حدّ البطولة كشخصيّة الأخضر مهّي.

ومن الشّخصيّات المتخيّلة كذلك في رواية "حومة الطّليان " شخصيّة " بوجمعة " ابن الأخضر مهّي الّذي ساهم بشكل كبير في سير الأحداث وتطوّرها، فقد كان تلميذا في السّنة الثّانية ثانوي تعرّض لاغتيال من طرف قوات الجيش الفرنسي أثناء خروجه من الثّانوية، رفقة صديقيه دييغو ستيفانو الطّلياني وشلومو بن إسحاق اليهودي، اللّذان تخلّيا عنه في أصعب المواقف وقطعا حبل الصّداقة الّذي كان يجمعهم.

وهنا تبدأ معاناة بوجمعة والكثير من الموقوفين الجزائريّين خاصّة صغار الّسن أمثاله، حيث لم يدق طعم الرّاحة والاستقرار منذ أن دخل إليه؛ فقد تعرّض لأقصى أنواع العذاب وأشدّها سواء كان سمعيّا أم بصريّا أم جسديّا " فقد اقتيد بوجمعة من طرف الرقيب "ريمون Rayman" إلى القبو السّفلي الّذي تسوده قمّة تامة ، وكأنّه قاع بئر قديمة ، وما إن فتح بابه حتّى انبعثت منه رائحة كريهة تزكم الأنفاس وتقبض الأرواح، أشعل الرّقيب المصباح الكهربائي الموجود ليس في السّقف بل فوق الباب، انكشفت العتمة عن منظر رهيب، قاذورات منتشرة في كل مكان ، وبول راكد ودم جامد، بقع للقيئ، وبقايا ثياب ممزقة، سراويل تبابين كالصّونات، إضافة إلى ذلك حشرات متعدّدة الألوان والفصائل، لا أحد يدري كيف اجتمعت وتآلفت في هذا الحجم، ويؤازر هذا العدوان البصري، عدوان سمعي ناتج عن هدير غريب لميّاه متدفّقة غير معروفة المكان لكنّها تكاد تمزّق طبلة الأذن وتشعر المتلقّي بأنه يكاد يغرق، إضافة الى هذا المنظر المريع كانت على الأرض وبشكل فوضويّ أسلاك كهربائيّة متعدّدة الأشكال والأحجام "(42).

فهدا المشهد يدلّ على حالة الجزائريّين المزرية أمام مغتصب يسلب الأرض ويستعبد الإنسان ويمارس جميع الوسائط للضّغط على النّاس وحملهم على القبول بالأمر الواقع والعيش تحت نير الاستعمار.

وقد نجا بوجمعة من هذا الجحيم بأعجوبة، فقد غاب عن وعيه عدة مرات، لان بنيته الجسدية لا تزال ضعيفة، كما انه لا يمتلك أدنى فكرة عن وضعه في السجن والإجراءات الإذلالية التي تحدث فيه لمن عذاب بوجمعة لم يتوقف عند هذا الحد، فعند خروجه صدم بحقيقة فصله من الدراسة، وتألم كثيرا لموت جارتهم " فلورا " التي راحت ضحية لمواقفها الشجاعة والكريمة، هذه الحقائق جعلته يكره الدراسة لأنها في نظره السبب الرئيسي في توقيفه وموت فلورا.

إضافة على هذه الشّخصية الّتي تصرّف فيها الرّاوي دون قيد أو شرط، نجد شخصيّة "الرّزقي" ذلك الجزائري السّكّير الّذي كان مثالا للمنحرفين ومروّجي المخدّرات في تلك الحقبة الثّوريّة، وفي الوقت الرّاهن فقد كان شخصا مرهوب الجانب، يخافه الجميع في حومة الطّليان، بل"وشكل عصابة تفرض قوانينها في زقاق عرب فأصحاب المحلّات يقدمون له رسما محددا، والزوار الغرباء أصبحوا عرضة للنّهب تحت تهديد السّلاح الأبيض وفي وضح النّهار ولا يمكن لأيّ كان أن يتدخّل، فما على المهدّد إلا ان يستسلم فيأخذ منه جوابه فقط ثم يلوذ أفراد العصابة بالفرار، يتمّ ذلك تحت مراقبة الرّزقي الذي يتدخّل إذا ما رأى أطفاله عرضة للتّهديد الفعلي، حيث يفاجئ هدفه بضربة رأس تلقيه أرضا "(43).

وقد استحوذت هذه الشّخصية على رقعة لابأس بها في الرّواية فهي تمثل الجانب الّسلبي من الشّخصيّات المتخيّلة الجزائريّة، حيث تحدّث عنها الرّوائي بكل حريّة واستخدمها لتكون عبرة لكلّ المنحرفين في تلك الحقبة الثّوريّة ، فبالرغم من تحذيرات جبهة التّحرير له، إلّا أّنه لم يستجب، فبالغ في عدوانيّته وتحدّيه خاصّة بعد خروجه من السّجن، بل وصلت عنجهيّته إلى إهمال ابنه الصّغير "بوعلام" وتركه متشرّدا يهيم في شوارع حومة الطّليان دون رعاية أو اهتمام، لكنّ جبهة التّحرير وضعت حدّا للرّزقي، بعد استهزائه بتوجيهاتها وأوامرها الّتي كانت مطابقة لما نصّت عليه الشّريعة الإسلامية كترك الخمر والعدول

عنه والتكفّل بتربية ابنه والعودة إلى الطّريق المستقيم، فكان عقابه قطع يده اليسرى بلا رحمة أو شفقة، حتّى يكون عبرة لأمثاله ولكلّ من يتحدّى أنصار جبهة التّحرير أو يعصي أوامرها .

ومما سبق نلاحظ أنّ هذه الشّخصيّة رغم سلبيّتها ساهمت في تطوّر الأحداث وبيّنت مقدرة الرّاوي في تشكيل وإعادة بناء شخصيّة تاريخيّة، كانت الجزائر حافلة بها في تلك الحقبة من تاريخ الجزائر.

إضافة إلى هذه الشّخصيّات المتخيّلة الّتي وصل بعضها إلى حدّ البطولة، وأثبتت مقدرة الرّوائي في إنتاج عمل روائيّ تخييليّ، تظهر شخصيات ثانويّة أخرى ساهمت في سير الأحداث وتقدّمها مثل زوجة الأخضر مهّي "الزّهرة " هذه المرأة الّتي اتّخذت مواقف جريئة أثناء فصل بوجمعة من الدّراسة وموت فلورا، فكانت مثالا للأمّ الحنون والجارة الوفيّة، فقد عبّرت عن حزنها لهذين الموقفين بل وعاتبت نفسها لكونها السّبب في وفاة جارتها "فلورا " وكانت أكثرهم ألما وحزنا، وما فتئت تلطم وجهها وخدودها بكلّ قسوة وعصبيّة، وبل لم تعبّر كبير الاهتمام لإطلاق سراح زوجها الّذي راح يهدّئ من روعها، لكنّه لم يفلح في ذلك "(44)، فحزنت الزّهرة على فلورا يؤكد مدى أهميّتها بالنّسبة لها ولكلّ سكّان الحومة سواء كانوا عربا أو أوربيّين، والدّليل على ذلك حضورهم جميعا في جنازتها " (45)فالنّساء العربيّات تجمّعهن حول الزّهرة الّتي لبست ملايتها السّوداء مثل باقي النّساء العربيّات، وما فتئت تنحب وتلطم خدّها ، وقد بدا الإعياء على وجهها الشّاحب، وأما الرّجال العرب فقد تجمّعوا أمام حانوت الزّنقة ، واليهود تجمّعوا رجالا ونساء من بعيد بالضّبط عند مدخل الزّنقة، أمّا الأوربيّون فقد تجمّعوا أمام منزل السيّدة Delarue ، ومن بينهم كان المراقب العام للثّانوية وواحد من الحرس وآخر من العمّال، وكانت باديّة على وجوههم علامات الخيبة والأسى" (45).

فهذه الشّخصية المتخيّلة لم تكسب هذه المكانة الرّفيعة من فراغ، وإنّما اكتسبتها من معاملتها الحسنة وتعاطفها مع سكّان الحومة خاصّة الأطفال منهم إذ كانوا يعدّونها قدّيسة الحومة، لكثرة سخائها وكرمها وقد كانت "تقدّم لهم كل رأس شهر عندما تستلم منحة زوجها مختلف أنواع الحلوى والبسكويت، لذلك فكلّهم يتفانى في خدمتها "(46)، ومقابل هذا التّعاطف كان الأطفال يساعدونها في حمل مشترياتها وتنظيف بيتها، جزاء على خدمتها الجليلة الّتي قلّما يجدونها من شخص أوربيّ أو حتّى جزائري الجنسيّة.

وإلى جانب هذه الشّخصية البروتانتيّة المتخيّلة الّتي ساهمت في سير الأحداث بشكل إيجابي، نجد شخصيات أجنبيّة أخرى افترضها الرّوائي وابتكرها لتزيد من أخيلة عمله الرّوائي وتحرّره من قيود التّاريخ؛ منها شخصيّة جاكلين الّتي كانت هي الأخرى كريمة مع أطفال الحومة مثل فلورا "وهي التي لا تتكبر عليهم، وتمكن ان تدخل في معارك ساخنة من أجلهم، بل ذات مرة أنقذت أحد أطفال الحيّ من أيدي الشّرطة الّتي أرادت أن تجعله أضحيّة لفعل لم يقترفه "(47).

فجاكلين لم تتوقّف عن تقديم مساعداتها وخدماتها لكلّ سكان الحومة حتّى بعد إصابتها بالعمى النّاتج من إصابتها بمرض الرّمد الحبيبي، وهذا ما زاد من ثقة السّكّان بها، بل وجعلوها مثالا للنّزاهة والصّفاء الإنساني، وهي لم تقدّم مساعداتها لأهداف سياسيّة دينيّة، بل لأهداف إنسانيّة بحتة مبنيّة على الحب والاحترام.

فهذه الشّخصيّات الأجنبيّة المتخيّلة والّتي كانت تمتلك جانبا إيجابيّا، كانت تقابلها شخصيّات أخرى سلبيّة تفاعلت معها، فساهمت في تقدّم الأحداث وتطوّرها، من بينها شخصيّة "ميشال Michel" الفرنسي وهو مثل "الرّزقي" الجزائري؛ فقد كان هو الآخر من مروّجي الحشيش، يتسكّع دوما من حانة لأخرى، فلا تمرّ ليلة دون أن يحدث جلبة فور مجيئه من حانة المالطي "جورجGeorges"، تلك الحانة التي تجمع الشواذ والمجرمين ومدخّني الحشيش.

كما كان يتحيّن الفرص للوشاية بالعرب أو التّحريض للقبض عليهم، وهذا ما فعله أثناء مداهمة العساكر الفرنسيّين للبناية الّتي يقطنها العرب، فقد حرّضهم على تفتيش بيت "الأخضر مهّي" ثّم بيت جارتهم "الطّاوس"، ولم تخلّف عمليّة تفتيش هذه سوى الدّمار والخراب، وهذا ما استغربت له "الزّهرة" بقولها: "...فهم لا يبحثون عن الّذي قام بالعمليّة بل هم يبحثون عن أشياء أخرى وغير واضحة، لأنّ المنطق السّليم يقول إنّ من قام بالعمليّة لا شكّ في أنّه إنسان يعني له حجم معلوم، ولا يمكن أن يختبئ في أماكن أقلّ من ذلك الحجم، ومن ثمّ ما الدّاعي لتقليب الخزائن والأواني والأسرّة، إنّه ببساطة ظلم وعدوان"(48)، فهذا المشهد يدلّ على أنّ الاستعمار بحاجة دائما إلى ممارسة العنف والإرهاب للمحافظة على وجوده وسلطته .

ممّا سبق يمكن القول إنّ شخصيّات أحمد حمدي سواء كانت تاريخيّة حقيقيّة أم متخيّلة، كانت لها جوانب سلبيّة وإيجابيّة، وهذه خاصية طبيعيّة في روايته الّتي تهدف إلى إحياء ما وقع في مدينة سكيكدة بشكل خاصّ والجزائر بشكل عامّ، وما حدث فيها من أزمات تركت شرخا عميقا في نفوس الجزائريين، سببها المباشر سلبيّة المستعمر والتّابعين له في تلك الحقبة الثّورية، وبطولات اندمل من خلالها جرح الجزائر، وساهمت في تحقيق حلمها الكبير ألا وهو سطوع شمس الحريّة والاستقلال.

الإحالات والهوامش:

1-**وليد بن حمد الذّهلي**: جماليّات الصّحراء في الرّواية العربيّة، إبراهيم الكوني أنموذجا، (ط1)، دار جرير للنّشر والتّوزيع، عمّان -الأردن، 2013، ص 19.

2-**نوّاف أبو ساري**: الرّواية التّاريخيّة، (د،ط)، بهاء الدين للنّشر والتّوزيع، قسنطينة،2004 ص 97.

3-**سمر روحي الفيصل**: الرّواية العربيّة البناء والرّؤيا، (مقاربات نقدية)، (د.ط)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2003، ص 131.

4-**الطّاهر روابنيّة**: سرديّات الخطاب الرّوائي المغاربي الجديد، ص110.

5-المرجع نفسه، ص ن.

6-**وليد بن حمد الذّهلي**: جماليّات الصّحراء في الرّواية العربيّة، ص 23.

7-**نضال الشّمالي**: الرّواية والتّاريخ، ص 226.

8-المرجع نفسه، ص ن.

9-**محمّد لعور ورابح بن خوية**: المتخيّل والمحتمل في رواية حومة الطّليان، ص 05.

10-**نضال الشّمالي**: الرّواية والتّاريخ، ص 227.
11-**حسن بحراوي**: بنية الشّكل الرّوائي-الفضاء، الزّمن، الشّخصيّة-، ص 295.
12-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص 60.
13-المصدر نفسه، ص 06.
14-المصدر نفسه، ص 92.
15-المصدر نفسه، ص 12.
16-**سامي كليب**: الجنرال أوساريس، جنرال سابق في الجيش الفرنسي، http//aljazeera.net 2014/06/08.
17-المرجع نفسه.
18-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص107-108.
19-المصدر نفسه: ص 121-122.
20-**نضال الشّمالي**: الرّواية والتّاريخ، ص 230.
21-**جورج لوكاتش**: الرّواية التّاريخيّة، ص 32-33.
22-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص 109.
23-المصدر نفسه، ص 90.
24-المصدر نفسه، ص ن.
25-المصدر نفسه، ص 80.
26-**يحي بوعزيز**: الاتّهامات المتبادلة بين ميصالي الحاج واللّجنة المركزيّة وجبهة التّحرير الوطني 1946/ 1962، (د.ط)، دار هومة، الجزائر، 2001، ص 156.
27-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص 157.
28-**مزيان بونيّة**: من علماء بلادي، (د.ط)، دار الحديث للكتاب، الجزائر، 2004، ص 08.
29-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص 257.
30-المصدر نفسه، ص 07.
31-ينظر: **فيليب بيتان** http//Wikipédia, org 2014/06/02.
32-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص 14.
33-المصدر نفسه، ص 16.
34-المصدر نفسه، ص 52.
35-المصدر نفسه، ص ن.
36-**نضال الشّمالي**: الرّواية والتّاريخ، ص 233.
37-المرجع نفسه، ص ن.
38-**أحمد حمدي**: حومة الطّليان، ص21.
39-المصدر نفسه، ص 24.
40-المصدر نفسه، ص 31.
41-المصدر نفسه، ص316.
42-المصدر نفسه، ص 197.
43-المصدر نفسه، ص 78.
44-المصدر نفسه، ص 205.
45-المصدر نفسه، ص208.
46-المصدر نفسه، ص 11.
47-المصدر نفسه، ص40.
48-المصدر نفسه، ص 68.

المصادر والمراجع:

أ-المصادر:

1-أحمد حمدي: حومة الطليان، (د، ط)، دار هومة للنشر، الجزائر، 2010.

ب-المراجع:

1-المراجع العربيّة:

1-حسن بحراوي: بنية الشّكل الرّوائي (الفضاء، الزمن، الشّخصيّة)، (د.ط)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، (د،ت).

2-سمر روحي الفيصل: الرّواية العربيّة البناء والرّؤيا، (مقاربات نقدية)، (د.ط)، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2003.

3-مزيان بونية: من علماء بلادي، (د،ط)، دار الحديث للكتاب، الجزائر، (د،ت).

4-نضال الشّمالي: الرّواية والتّاريخ، (د،ط)، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2006.

5-نوّاف أبو ساري: الرّواية التّاريخيّة، (د،ط)، بهاء الدين للنّشر والتّوزيع، قسنطينة،2004

6-وليد بن حمد الذّهلي: جماليّة الصّحراء في الرّواية العربيّة -إبراهيم الكوني أنموذجا-(ط1)، دار جرير للنّشر والتّوزيع، عمّان-الأردن، 2013.

7-يحي بوعزيز: الاتّهامات المتبادلة بين مصالي الحاج واللّجنة المركزيّة وجبهة التّحرير الوطني 1946-1962، (د.ط)، دار هومة، الجزائر، 2001.

2-المراجع المترجمة:

1-جورج لوكاتش: الرّواية التّاريخية، ترجمة: صالح جواد كاظم، (د،ط)، دار الطّليعة، بيروت، 1978.

3-الرّسائل الجامعيّة:

1-الطّاهر روابنيّة: سرديّات الخطاب الرّوائي المغاربي الجديد، مقاربة نصّانية، نظريّة تطبيقيّة في آليّات الحكي الرّوائي، أطروحة دكتوراه دولة، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الجزائر، 1999-2000.

4-الملتقيات:

1-محمّد لعور ورابح بن خوية: المتحقّق والمتخيّل في رواية حومة الطّليان لأحمد حمدي، مقاربة في المتفاعل النّصّي التّاريخي، ملتقى الرّواية والتّاريخ، 12-13 مارس 2012، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة.

5-المواقع الإلكترونيّة:

1-فيليب بيتان: http://ar.wikipidia.org 10/01/2013

2-سامي كليب: الجنرال أوساريس، جنرال سابق في الجيش الفرنسي، http://Aljazeera.net 2014/06/08.